



من سنن الله تعالى مع الأمم السابقة

(023) سورة المؤمنون

اللقاء الثالث من تفسير سورة المؤمنون : شرح الآيات 31-44

2024-08-24

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:
هذا لقاءنا الثالث من لقاءات سورة المؤمنون، ومع الآية الواحدة والثلاثين من السورة وهي قوله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (31)

(سورة المؤمنون)

من بعدهم أي من بعد قوم نوح، الذين كذبوا نبيهم نوحاً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وقد جاءهم بالأمر بعبادة الله تعالى وتوحيده وتقواه، فما كان منهم إلا أن كذبوه فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (26)

(سورة المؤمنون)

فأوحى الله تعالى إليه أن يصنع الفلك وأن ينجو مع المؤمنين به، وختم الله تعالى القصة بقوله:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (30)

(سورة المؤمنون)

القرن هو المدة الزمنية التي يعيش بها جيل من الأجيال:

ثم قال تعالى: **(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)** والقرن هو المدة من الزمن، التي يكون فيها حدثٌ مُعَيَّنٌ أو شيءٌ مُعَيَّنٌ، يُسَمَّى قرناً، يعني هناك قرن نوح، وقرن عاد، وقرن ثمود، فأى مجموعة بشرية تعيش ظروف متشابهة يُطلق على هذه المدة قرن، ثم اصطلح حديثاً على تسمية القرن بمئة سنة، يعني جيل كامل، لكن هو في الأصل في القرآن ليس له مفهوم مئة عام، وإنما له مفهوم المدة الزمنية التي يعيش فيها جيل من الأجيال، قرن نوح استمر ألف عام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ **أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا** فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ
وَهُمْ ظَالِمُونَ (14)

(سورة العنكبوت)

هذا هو القرن مدة زمنية، فقال: **(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)**، من هو هذا القرن؟ معظم المفسرين قالوا هم قوم عاد، الذين أرسل الله تعالى إليهم نبيُّه هوداً عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَلِيَّ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا **إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَرْنُ الَّذِي تَلَا قَرْنَ نُوْحٍ** قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ **إِنِّي أَفَلَا
تَتَّقُونَ (65)**

(سورة الأعراف)

لماذا؟ قال: لأنَّ في القرآن في أكثر من سورةٍ ومنها الأعراف ومنها هود ذكر الله نوحاً ثم ذكر من بعده هوداً، لأنَّ هذا هو القرن الذي تلا قرن نوح، والبعض قال بل هو ثمود وهم الأقلية، واستنبطوا ذلك من أنَّ عذاب هذا القرن كما جاء في الآيات كان في الصيحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ** فَتَبَعْنَا لَهُمُ السَّيْلَ الْكَلِيلَ (41)

(سورة المؤمنون)

ما هي الصيحة؟

والصيحة ذكرها الله تعالى في إهلاك قوم ثمود، لكن الصيحة هي عذابٌ عام لا يُشترط أن يكون خاصاً بقوم ثمود، فالله تعالى أهلك عاداً بريحٍ صرصيرٍ عاتية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (6)

(سورة الحاقة)

فإن قلنا أنّ الصيحة هي هذا الصوت العظيم الذي يصدر من الريح الصرصر العاتية فهذا مقبول، وإن قلنا أنه رافقها صيحة عظيمة من جبريل عليه السلام كما في بعض التفاسير، فيمكن أن يكون العذاب بالريح والصيحة معاً، على كل الغالب أنّ هؤلاء هم قوم هود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهم عاد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِنْهَا فِي الْيَلَدِ (8) وَتَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9)

(سورة الفجر)

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ)، النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

{ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُوتُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُوتُهُمْ، ثُمَّ يَحْيَىٰ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ. }
(أخرجه البخاري ومسلم)

فقرن النبي صلى الله عليه وسلم أي تلك المدة التي عاشها صلى الله عليه وسلم لاسيما بعد بعثته هي خير القرون، هم صحابته الكرام ثم يأتي التابعون ثم يأتي تابعو التابعين، هذا كل جيل يُسَمَّى قرن، وهو يمتد تقريباً مئة عام، لذلك الآن اصطلاح على تسمية القرن أو على جعل القرن مئة عام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ □ أَفَلَا تَتَّقُونَ (32)

(سورة المؤمنون)

هذا الرسول منهم أي من عشيرتهم، من قومهم، بشراً مثلهم، ينطق بلغتهم.

الله تعالى أرسل رسوله بشراً ليصح الاقتداء به:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُبَيِّنَ لِقَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ □ قَبِيلُ اللَّهِ مِنَ بَشَرٍ وَيَهْدِي مِنَ
بَشَرٍ □ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (4)

(سورة إبراهيم)

هذه كلها يختصرها المولى بقوله (مِنْهُمْ) يعني منهم أولاً بشر مثلهم، لأنه لو كان ملكاً أو لم يكن بشراً، كان مخلوقاً من نوع آخر لما صح الاقتداء به، فالقدوة يجب أن تعاني الظروف التي يُعانيها المُقتدي، يتنازعها الخير والشر، تشتت كما يشتت غيرها، قال صلى الله عليه وسلم:

{ اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، أُغْضِبُ كَمَا يَعْضَبُ الْبَشَرُ، وَأَرْضِي كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا مُسْلِمٍ

لَعَنْتَهُ فِي غَيْرِ كُنْهٍ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَأَجْرًا. }

(أخرجه شعيب الأرنؤوط)

أما لو كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعضب، لا يعتبره الغضب، لا يمكن الاقتداء به، يقول الإنسان أنا أغضب من كل شيء، لو كان لا يشتهي النساء صلى الله عليه وسلم لما صح الاقتداء به في غضب البصر وحفظ الفرج، فبشرية الأنبياء هي الدافع للاقتداء بهم، لأنهم يعانون الظروف التي يعانيها المدعوون، فمنهم أولاً أنه بشر، ثانياً أنه من القبيلة أو العشيرة، يعني هو ما جاء للعرب من الشرك، أو بالعكس وإنما جاء منهم، من عشيرتهم، من قبيلتهم حتى يعرفوه، النبي صلى الله عليه وسلم لما تحدث عنه جعفر رضي الله عنه مخاطباً النجاشي قال: "حتى بعث الله فينا رسولا منا، يعرف أمانته، وصدقته، وعفافه، ونسبه" فهذا باعث قوي على الإيمان به، لأنهم عايشوه قبل البعثة فوجدوه عند الحديث صادقا، وعند المعاملة أميئا، وعند وجود الشهوة عفيفا، ثم نسبه معروف بينهم، فهو من بني هاشم صلى الله عليه وسلم من خير قبائل العرب، من قريش، فهذا المعنى الثاني، أولاً منهم بشر مثلهم، ثانياً هو منهم من قبيلتهم، من عشيرتهم، من بيئتهم، ثالثاً يتكلم بلسانهم، أي بلغتهم، (لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) فكل هذه المعاني يختصرها المولى بقوله: (مَنْهُمْ).

رسالة الأنبياء جميعهم هي التوحيد والعبادة:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) كل الأنبياء جاؤوا بهاتين الكلمتين التوحيد والعبادة، نوح عليه السلام:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (59)

(سورة الأعراف)

هنا أيضاً (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (25)

(سورة الأنبياء)

إنما أن يبدأ بالحركة أو أن يبدأ بالعبادة، لكن كلاهما متكاملان، بمعنى أنه لا بُدَّ من عقيدة هي التوحيد، ولا بُدَّ من عمل هو العبادة، أنت في يومك تتعلم أشياء عديدة، أشياء في التجارة، أشياء في الأدب، أشياء في الاقتصاد، أشياء في الإعلام، تتعلم معلومات كثيرة لكن أعظم ما تتعلمه هو توحيد الله، أن تعلم أنه لا إله إلا الله، وفي يومك تفعل أشياء كثيرة، تذهب إلى نزهة، تذهب لزيارة صديق، تذهب إلى عملك، تتحرك، لكن أعظم حركة تتحركها هي العبادة، أن تقف بين يدي الله مُصَلِّياً، أو تذهب إلى عملك تارواياً خدمة المسلمين، مُخَضِعاً عملك لمنهج الله، يعني العمل عبادة بهذا المعنى، فالحركة عبادة، وما يجول في ذهنك توحيد، فإذا اكتمل التوحيد مع العبادة تكاملاً، كان هذا أعظم شيء يفعله الإنسان، توحيد وعبادة، لذلك كل الأنبياء جاؤوا بالتوحيد والعبادة، لذلك قال بعض العلماء: **الدين واحد** فلا يصح أن يُقال أديان إلا على سبيل المجاز، يعني يقال أديان على سبيل المجاز، بمعنى دين الإسلام، ودين النصرى، ودين اليهودية، مجازاً، أما في الحقيقة الدين واحد، وهو توحيد الله وعبادته.

الشرائع تختلف لكن الدين واحد وهو عبادة الله وتوحيده:

لكن قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۚ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ سَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۚ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48)

(سورة المائدة)

الشرائع تختلف، اليوم في المناهج الحديثة يكون مطلوب في الصف الرابع من التعليم الأساسي أن يتعلم الطالب هذه الأمور، الآن تُوَلَّفُ مناهج كل حين لكن لا بُدَّ أن تشمل هذه الأمور الثلاثة، فيوضع منهاج جديد يعالج هذه القضايا اللغوية بطريقة جديدة تناسب العصر، نقول هذا الكتاب طبعة عام 2016 تغيَّرَ منهاج طبعة 2018 لكن في كل المراحل، وفي الرابع ينبغي أن يتعلم الطالب اللغة العربية المرفوعات الفاعل، وتائب الفاعل، وأسم كان، وخبر إنَّ، وغير ذلك من المرفوعات، والابتداء والخبر، هذه لا بُدَّ أن يتعلمها لكن كيف الطريقة؟ تختلف نضع النص ثم نستخرج القواعد، نضع القاعدة ثم نطِّق عليها هذه شرعة ومنهاج، أمَّا مفردات المنهاج واحدة، الله تعالى دينه هو الإسلام وهو عبادة الله وتوحيده، لكن كل نبي جاء بشريعة مختلفة في بعض الجزئيات والتفاصيل بغية تحقيق هذين الهدفين.

سبب معارضة الملأ من القوم دعوة الرسل:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ □ أَفَلَا تَتَّقُونَ) الكلام نفسه، هذه السورة توضَّح ذكر الأنبياء فيها هدفه شيء واحد وهو وحدة الكلمة التي جاء بها الأنبياء، ثم وحدة الموقف الذي واجه به الكلمة المترفون والملأ من القوم، وقلنا الملأ هم الذين يملؤون المكان ويملؤون العين، فينظر الناس إليهم لأنهم في صدر المجلس فسَمُّوا ملأ، وهم غالباً أول من يعارض دعوة الرسل، لأنها ستقضي على مكانتهم المصطنعة، التي اصطنعوها لأنفسهم بالبغي والظلم والعدوان، لذلك لما نبي صلى الله عليه وسلم جاء إلى قومه بالإسلام بدؤوا يعرضون عليه مفاسمة الملأ، لأنهم لا يريدون الاستغناء عن الميزات، ولا يتوهمون أن غيره جاء إلى الميزات، لا يعقلون المبادئ والقيم يعقلون الميزات، فقالوا إن شئت الملأ ملكناك علينا لكن دع لنا ميزتنا، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء دعا فوراً إلى عبادة الله تعالى ووجدانيته، ولو أنه جاء بقيم أخلاقية فقط لما عارضه قومه، إن كنت ستبقي الحكم بأيدنا والملأ لنا، فتكلم عن الصدق والأمانة والحب والسلام ما شئت، ما عندنا مشكله، لكنه صلى الله عليه وسلم انتصر للتوحيد، قال: لا أنا جئت للتوحيد، وعرف ما في داخلهم لأنهم يريدون السيادة، فقال لهم: إن قلتم هذه الكلمة دانت لكم العرب والعجم، يعني لن ينزل ملككم شيئاً، لكن سيحوّل من الطريق الخاطئ إلى الطريق الصحيح، قولوها وأن أضمن أن تدب لكم العرب والعجم معاً، أنتم الآن تدب لكم العرب، بالتوحيد ستدين لكم العجم، لكن بقوة الله، فالمعركة دائماً بين النبي غالباً ما تكون مع الملأ من القوم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
** وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيعَابِ الْآجِرَةِ وَأَثَرِفَتَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا نَشْرٌ مُثَلِّكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33)**

(سورة المؤمنون)

(كَفَرُوا) الكفر هو الغطاء، والكفران هو إنكار ما جاء به النبي **(وَكَذَّبُوا بِإِيعَابِ الْآجِرَةِ)** وخصَّ التكذيب بإيعاب الآخرة بالذكر لأنه الأساس في الإنكار.

عندما تستهدف اللذة فإنها لا تكفي الإنسان وتتحول إلى خسران:

(وَأَثَرِفَتَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي أضعنا عليهم نعماً زائلة في الحياة الدنيا حتى تتعموا بها، الترف أحياناً الكرام في القرآن الكريم ورد في ستة مواضع ولم يرد إلا مذموم، لم يرد الترف في كتاب الله تعالى إلا مذموماً، والترف يأتي في اللغة على معانٍ منها التمتع بالدنيا، هذا ترف، يعني استهداف النعمة، استهداف اللذة، أن تصيح اللذة هي الهدف، وهذا الإنسان عندما يستهدف النعمة تنقلب اللذة إلى خسران، اللذة رننا عز وجل منحها للإنسان، لكن طلب منه أن لا يستهدفها وإنما يجعلها وسيلة وليست غاية، كل الناس عندهم شهوة تجاه المرأة، النساء تجاه الرجل، هذه الشهوة إذا استهدفت يملها الإنسان، حين هنا تجد الآن الانحرافات بدأت لأنه لا يرضى بزوجه، يريد العشيق والخليفة، انتقلت إلى أنه لا يرضى بالنساء يريد الرجال، انتقلت إلى أنه لا يرضى بالرجال يريد الحيوانات، لأن اللذة استهدفت فما عادت تكفي، متى استهدفت اللذة لا تكفي الإنسان، متى كانت غايته هي الله ورضوان الله فاللحلال يكفيه، اللحلال يكفي الإنسان عندما يريد الله، ولا يكفيه شيء من الحرام عندما يريد اللذة لذاتها، فالترف هو التمتع وقد ورد في الحديث، ونبينا صلى الله عليه وسلم يخاطب معاذ بن جبل قال:

{ إِيَّاكَ وَالتَّعَمُّ، فَإِنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَمِّعِينَ }

(الألباني صحيح الجامع)

الترف دائماً يرتبط بالفسق والبُعد عن منهج الله:

بمعنى أنهم ليسوا يقصدون النعمة بذاتها فيتنعمون، التمتع مرفوض، لكن أن تستثمر النعمة في طاعة الله مطلوب، لكن أن تتنعم بمعنى أن تجعل النعمة هدفاً هذا هو المرفوض، فالترف تنعم، الترف طغيان، تجاوز للحدود، الترف تجرُّ وبعي، لذلك ورد في بعض القواميس العربية أنَّ المُتَرَفَّ هو الجبار، لأنه تمكن من النعمة واستحوذ عليها كقارون، لَمَّا تمكن من النعمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
** إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى قَبْعَى عَلَيْهِمْ □ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ □ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ □ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ □ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا □ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ □ وَلَا تَتَّبِعِ الْقَسَادَ فِي الْأَرْضِ □ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77)
** قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي □ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا □ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ دُونِهِمْ الْمُجْرِمُونَ (78)****

تجبر، الترف في القرآن الكريم نتاجه أو الأمور التي يرتبط بها دائماً أولاً الفسق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً **** أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا (16)

(سورة الإسراء)

أولاً الفسق، يرتبط الترف بالبعد عن منهج الله، الخروج عن منهج الله، يرتبط بالظلم والسكوت عن الفساد، يرتبط بمواجهة الهداية، يأتي النبي بالدعوة فيواجهونه، يرتبط بمناهضة الرسل وتكذيبهم كما في هذه الآية: **(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيعَاءِ الْأَجْرَةِ وَأُتْرَفَانُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم)** ويرتبط باستحقاق الآية، لأن الله يهلك المترفين، هذا هو الترف في هذه الآية، فهنا ما الذي قاله المترفون؟ قالوا: **(مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم)** كما قلنا سياق الآيات في سورة المؤمنون ليس لبيان قصص الأنبياء مع أقوامهم التفصيلية كما في سورة هود مثلاً، لا، فقط بأن الله عز وجل أرسل الرسول فدعا إلى العبادة والتوحيد، فواجهه الملاء فدعا ربه فأهلكهم الله، هكذا السياق هنا، لذلك بدأ بنوح عليه السلام، ثم يهود عليه السلام ثم قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42)

(سورة المؤمنون)

كما سيأتي، ثم ذكر سيدنا موسى وعيسى عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام وخلفهم، يعني أول نبين وآخر نبين وبينهما **(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ)**، السياق هو عاقبة التكذيب، عاقبة المكذبين، هذا هو سياق السورة، بحسب سياق السورة نفهم القصص التي ترد فيها، القرآن ليس فيه تكرار، بحسب السياق نفهم وجود هذا الجزء من القصة أو هذا الجزء من القصة.

قالوا: **(مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم)** الكلام نفسه، الحجة نفسها وهو أن هذا بشر، ونحن لا نتبع بشر، **(مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُم يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)**، وقالوا عن نبينا صلى الله عليه وسلم:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ **** يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ **** لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ
فَيَكُونُ مَعَهُ تَدْبِيرًا (7)

(سورة الفرقان)

يعني هم يريدون شيء غير محسوس، غير مادي، ملائكة تنزل من السماء إليهم، مائدة تنزل من السماء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ □ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا **** يَا سُلَيْمَانُ إِنَّا بُدِئُوا بِكِتَابٍ فَآتِنَا ذِكْرَكَ □ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا
مُّبِينًا (153)

(سورة النساء)

لا يحصل ترف في المجتمع إلا بوجود فقر شديد:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْنَ أَطْعَمُ بَسْرًا مِّنْكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ (34)

(سورة المؤمنون)

نطبعه وهو بشر! نطبع مَلَكًا، نطبع كائناً من الفضاء، لكن لا نطبع بشراً مثلنا، ما الذي له علينا من فضل؟ **(إِنَّكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ)** طبعاً هذه حُجج وليست هي الحقيقة، الحقيقة هي أَنَّ المَلَأَ من قومه علموا أن الإيمان به واتباعه سيقضي على ترفهم وعلى أكلهم حقوق الناس، ما الذي أترفهم؟ لا يحصل ترف حقيقي إلا بوجود فقر حقيقي، لذلك في المجتمعات التي يكون فيها مَلَأٌ ويكون فيها ضعفاء، هذه المجتمعات فيها مشكلة كبيرة جداً، كلما الطبقة الوسطى غابت فانت أمام مشكلات كارثية لا حصر لها، عندما يأتي شخصاً ويقوم حفاً يُنفق فيه الملايين وينظر إليه آخر بعينه وهو لا يجد قوت يومه، فانت أمام ما يُسمونه إرهاب.

كان سيدنا علي رضي الله عنه يقول: **"كاد الفقر أن يكون كُفراً"** وكاد الفقر أن يكون إرهاباً، وكاد الفقر أن يكون حسداً وحقداً، لذلك لا يحصل ترف في المجتمع إلا بوجود فقر شديد، لأنَّ الثروة أصبح عشرة بالمئة من الناس في هذا البلد يملكون تسعين بالمئة من الثروة، وتسعين بالمئة يملكون عشرة بالمئة من الثروة، والله تعالى يقول:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
مَا أَقَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ قَلِيلًا وَلِيُرْسُولَ الَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
 كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (7)

(سورة الحشر)

المال يجب أن يكون متداولاً بين أوسع شريحة في المجتمع، لا يكون متداولاً بين فئة، تداوله بين فئة محدّدة يؤدي إلى الترف، لأنه أصبح هناك مبالغ كبيرة فينفقها في المحرمات، وينفقها في التوسع الشديد في المباحات، لكن في الغالب المُتَرَفُّ يتنقل إلى المحرمات وليس إلى التوسع في المباحات فحسب.

أعظم إنكار المكذبين هو إنكارهم للبعث بعد الموت:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَلَيْنَ أَطْعَمُ بَسْرًا مِّنْكُمْ إِذَا لَخَّاسِرُونَ (34) أَيْعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِطَافًا أَنْتُمْ مُّخْرَجُونَ (35)

(سورة المؤمنون)

إنكارُ للبعث، وهذا ما عليه معظم الأقوام المُكذِّبين أنهم كانوا يُنكرون البعث بعد الموت، وإن كان هذا عقلاً غير وارد لأنهم وجدوا ويعتقون بعد الموت، كانوا من العدم فأصبحوا موجودين كما قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (27)

(سورة الروم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (36)

(سورة المؤمنون)

هيهات بمعنى بُعِدَ بعيداً، وهيهات اسم فعل ماضٍ بمعنى بُعِدَ، نحن عندنا في اللغة اسم وفعل وحرف، الاسم يفيد حدث مجرد من الزمن، إذا قلت كتاب هذا اسم فيه حدث وهو الكتاب، متى نَمَتَ الكتابة في الماضي، في الحاضر، في المستقبل؟ لا نعلم لكن هناك كتاب، هذا نَسَمِيهِ اسم، حدث من غير زمن، والفعل هو حدث مع الزمن، كتب في الماضي، يكتب الآن، اكتب في المستقبل، والفعل والحدث والزمن، والاسم هو الحدث من غير زمن، والحرف هو الكلمة التي لا تستقل بمعناها في نفسها في ذاتها، كان تقول في، لا معنى لكلمة في، إلا أن تقول في المدرسة، الآن عندنا شيءٌ اسمه اسم الفعل، هو معناه معنى الفعل لكن شكله شكل الاسم، لأنه لا يقبل علامات الفعل، فسَمُوهُ اسم الفعل، يعني الفعل: كتب، كُتِبَ، كُتِبْتُ، تكتب، سأكتب له لواحق يقبلها، أمّا هيهات لا تقبل هيهاتٍ هيهاتها، لا تقبل علامات الفعل، فقالوا هي اسم فعل هذا من فقه اللغة، هي اسم فعل معناها معنى الفعل لكن شكلها لا يقبل علامات الفعل، فهيهات أي بُعِدَ.

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) وهيهات الثانية للتوكيد، يعني بعيد هذا الذي يعدكم إياه وهو أن تُبعثوا، يعني أعظم مشكلة عند الكافر أن يكون هناك بعث، وأن هناك حساب، وهو قد أمضى حياته في معصية الخالق، المجرم لو لم يقل في كل لحظة هيهات هيهات أن يقبضوا عليّ لتوقف عن إجرامه، السارق إذا وَقَفَ مع نفسه لحظة صفاء وقال لك: سَيَقْبِضُ عليّ وساقضي بقية حياتي في السجن، لتوقف عن السرقة، لكن هو دائماً يقول في ذاته هيهات هيهات، تقول له: ولكنهم قبضوا على أناس كثيرين، يقول لك: لم يتخذوا الاحتياطات، أنا غيرهم، هو لو فكر أنه سَيَقْبِضُ عليه لما أقدم على السرقة، فهؤلاء المُكذِّبُونَ لو فكروا لحظة أن لهم موقفاً بين يدي الله ما أقدموا على الظلم، **(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)** الأمر بعيد جداً، لن يأتي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (37)

(سورة المؤمنون)

قال نموت ونحيا، يعني ليست الحياة بعد الموت وهي البعث لأنهم ينكرونها، ما معنى **(نَمُوتُ وَنَحْيَا)** يعني نموت نحن ونحيا من بعدنا أبناؤنا، مات أجدادنا وجئنا نحن من بعدهم، أو في تقديم وتأخير يعني **(إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)** نحيا فيها ونموت فيها، نحيا في هذه الحياة ثم نموت، كلاً الأمرين وارد، **(نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)** ليس هناك بعث أبداً، هي حياتنا تمضي، يأتي جيل، يخلق جيل، نموت وانتهى، بعث لا يوجد بعد الموت.

من حجج المكذبين أيضاً اتهامهم نبيهم بالافتراء والكذب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (38)

(سورة المؤمنون)

زادوا حجةً أخرى وهي اتهام نبيهم بالافتراء، والافتراء هو الاختلاق وهو من أشد أنواع الكذب، فالكاذب قد يذكر شيئاً فيتوهم شيئاً، أو قد يُحَرِّفُ القصة فيذكرها على خلاف ما وقعت، أمّا المُفْتَرِي فيخلق قصة ليس لها وجود، يعني يأتيك بقصة يقول لك: أنا اجتمعت مع فلان وكذا وهو لم يجتمع أصلاً مع فلان، والكاذب هو اجتمع معه لكن لم يقل له ذلك، قال له شيءٌ آخر، أو ذكر نصف ما قاله له وتوقف عند النصف الآخر، وهو قال له بعدها شيءٌ آخر يُعَدِّلُ ما قاله في البداية، فالكاذب يكذب في تفاصيل الحياة، المُخْتَلِقُ أو المُفْتَرِي يأتي بشيءٍ ليس له أصل أبداً، كله كذب بكذب، فهذا افتراء، فاتهموا نبيهم بأنه يفترى على الله كذباً، بأنه يدّعي أنه رسول وهو ليس رسولاً، ويدّعي أن الله أخبره بالبعث وهو ليس كذلك **(وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)** أي بمصدقين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ (39)

(سورة المؤمنون)

ما قاله نوح قاله هود، أو صالح عليهما السلام (قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي) أي بتكذيبهم إياي انصُرني عليهم، فقد استفدوا فرصتهم فانصُرني عليهم وانتقم منهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِخْرَنَ تَادِيمِينَ (40)

(سورة المؤمنون)

عم قليل أي بعد قليل، عم تأتي بمعنى بعد، وما زائدة للتوكيد، أي بعد قليل ليصبحن تاديمين، (لِيُصِخْرَنَ) قد تكون بمعنى الصباح، يعني في الصباح ستأتي الصيحة أو (لِيُصِخْرَنَ) بمعنى التحول الصيرورة، يعني ليصيْرُنَ تاديمين، ومتى يندم الإنسان؟ الإنسان يندم يعني المُكذَّب يندم غالباً بعد وقوع العذاب، أو بعد وقوعه في المأزق، لَمَّا قَتَلَ أَحَدَ ابْنَيْ آدَمَ الْآخَرَ بعد ذلك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سُوءَ أَجْرِهِ □ قَالَ يَا وَبَلْنَا أَعَزَّتْ أَمْ كُنَّا مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِي سُوءَ أَجْرِي □
 فَأَصْبَحَ مِنَ التَّائِبِينَ (31)

(سورة المائدة)

الله جلَّ جلاله لا يُهلك إلا من استحق العذاب:

المصيبة أنَّ الإنسان يندم بعد أن يقع في المعصية، أو يندم بعد وقوع العذاب، وعندها يفوت الأوان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ □ فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَابًا □ فَبَعَثْنَا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41)

(سورة المؤمنون)

الصيحة هي صوتٌ قويٌّ جداً يأتيهم فيهلك الإنسان به، الإنسان له قدرة على تحمل الأصوات، أحياناً يأتي صوت شديد جداً يخرق أذنه، يقول لك: خرق جدار الصوت، فتخيّل الصيحة الشديدة التي تُهلك الإنسان يموت بعدها، يعني هي قوية جداً الصيحة، أو هي تلك الصوت العظيم الذي في الريح الصرصر العاتية التي أصابت قوم عاد، إن قلنا هم قوم عاد. (فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ) يعني استحقوا هذه الصيحة، استحقوا العذاب والله تعالى لا يُهلك إلا من يستحق العذاب.

ما هو غُرَابٌ عُنَاءٌ؟

(فَجَعَلْنَاهُمْ غُرَابًا) عندما يأتي السيل، الماء ينزل المطر فيأتي السيل يجرف معه بقايا النباتات أعواد الأشجار، بقايا القمامة التي في الطرقات، هذه غُرَابٌ، أو هي تلك الرغوة البيضاء التي تعلق الماء الزبد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 كَذَلِكَ يَصْرَفُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ □ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ جَلْبَعٍ أَوْ مَتَاعٍ رَبُّهُ مَثَلُهُ □ كَذَلِكَ
يَصْرَفُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ □ وَأَمَّا الرِّبُّ فَبِيْدُهَا جُفَاءً □ وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ □
 كَذَلِكَ يَصْرَفُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (17)

(سورة الرعد)

فإِذَا هَذِهِ أَوْ تِلْكَ، عَلَى كُلِّ هِيَ عُنَاءُ كُفَّاءِ السَّبِيلِ، وَبَيْنَمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَأَلَ اللَّهُ السَّلَامَةَ، وَصَفَ مَا يُعَانِيهِ الْمُسْلِمُونَ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِأَنَّهُمْ عُنَاءُ كُفَّاءِ السَّبِيلِ:

{ يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ الْأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ، كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمِنْ قَلَّةٍ يَوْمَئِذٍ؟! قَالَ: لَا، وَلَكِنَّكُمْ عُنَاءُ كُفَّاءِ السَّبِيلِ، لَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْضِيَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ. }

(رواه أحمد وأبو داود)

وينبغي إذا قرأنا مثل هذه الأحاديث، أن يكون دافعنا أن نتلافى أن نكون كمن ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم، لا أن يكون الحديث دافعاً لنا على الاستسلام، البعض يقول لك انظر كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم نحن عناء كفاءة السبل، النبي صلى الله عليه وسلم يحذرنا أن نصل إلى هذا، ليس أنك معجب أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بما كان وانتهى الأمر، ينبغي أن تعمل لئلا تبقى الأمة في حالة الغنائية، حتى يكون الفهم صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، هو تحذير بأن نصل إلى هذه المرحلة مع ما فيه من إخبار لما سيكون، وهذا من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم.

(فَجَعَلْنَاهُمْ عُنَاءً لِقَوْمِ الطَّالِبِينَ) بُعْدًا لَهُمْ يعني طرداً لهم من رحمة الله لأنهم ابتعدوا عن الحق، فكان جزاؤهم البعد عن الله تعالى، وظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين **(فَجَعَلْنَا لِقَوْمِ الطَّالِبِينَ).**

قصة الأنبياء والدعاة قصة تتكرر في كل قرن وفي كل جيل:

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ) هذه القرون لا يذكرها الله تعالى هنا يذكرها في سورة هود، في هذه السورة يُدخِل ذكرها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
** وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعِفَرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (61)**

(سورة هود)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
** وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْفُسُوا الْيَتَامَى وَالْيَتَامَى إِلَيْكُمْ يَخْتَرُوا وَإِيَّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ (84)**

(سورة هود)

هناك قرون أخرى، في المرة الأولى قال قرناً، لأنه ذكر قرن واحد، الآن **(قُرُونًا آخَرِينَ)** في كل قرن جيل، ونبى ودعوة، ومصدقون، ومكذّبون، وهلاك، ونجاة، القصة نفسها متكررة، الآن ستتكرر مع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وتكررت معه، وتتكرر في كل زمان مع المصلحين والدعاة الذين هم ورثة الأنبياء، في هذه الآية سلوى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل داعية بعده، في أنه ستواجه بالطريقة نفسها، الطريقة أنك تأتي لهداية الناس لدعوتهم إلى التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، العنصران المهمان في كل دعوة، سيقوم إليك بعض الناس لاسيما المتنعون من الفساد، والإفساد والمال والترف، سيواجهونك، سيتكلمون عليك، سينشرون عنك الأكاذيب، سيبررون عنادهم وفجورهم وخصومتهم بمبررات واهية لا أساس لها، ستلتجئ إلى الله تعالى وحده ليحميك من كيدهم ومن فجورهم في الخصومة، فينصرك الله ولو بعد حين وتُهلكهم، هذه قصة الدعاة، قصة الأنبياء يذكرها الله تعالى، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (42) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْجِرُونَ (43)

